موقفنا من القرآن ؟

للسيد عبد الرحمن محمد الدوسري

قال الله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون . ٢ : ١٢١ وقال تعالى : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبّروا آياته وليذكر أولو الألباب » ٣٨ : ٢٩

وقال : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ٤٧ : ٢٤ وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (إن هذا القرآن حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوّم ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الترداد ، اقرؤوه فإن الله يأجركم على قراءته بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول (آلم) حرف ، ولكن الف حرف ولام حرف ، وميم حرف) والذي أذكّر به أن قراءته المطلوبة ليست هذرمة ولا ترنماً يخرجه عن شرف مكانته وعلو رفعته إلى فن الأغاني والتطريب ، وليست قراءته في المآتم ، وليست قدسيته ان يجعل تعاويذ يحملها المرضى والصبيان ، فإن الكتاب الكريم بل وكل كتاب لا يرسل لأجل نقوشه ، ولا لتكييف الأصوات بكلمه وحروفه ، وانما ليعلم مراد المرسل منه فيعمل به . وقد ضرب الإمام الغزالي مثلاً للعاصي اذا قرأ القرآن وكرره فجعله بمثابة من يكرر قراءة كتاب الملك كل يوم مرات ، وقد أمره فيه بعمارة مملكته وهو تاركها او مشغول

بتخريبها ، ومقتصر على قراءة كتابه ! فلو ترك تلك القراءة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء والمقت[1] . وقد جاءت الأحاديث بوصف أقوام يقرؤون القرآن لايجاوز حناجرهم انهم شرار الخلق . فالقرآن دستور كامل شامل لنظام الدنيا والآخرة وصفه منزله سبحانه بأنه « هدى للمتقين » ٢ : ٢ في عامة احوالهم ، حتى ان جميع قصصه تتضمن الأحكام والعبر . وتحاشياً للاطالة أقول قد تجد في سورة واحدة قصيرة دستوراً شاملاً لنظام السلم والحرب ، وافياً بحقوق الانسان ، مما لا يبلغ جزءاً من مبلغه المجلسُ الدولي الكبير العام في (سان فرانسيسكو) ، ولا منظمة حقوق الإنسان التي كفر بها واضعها من أول وهلة بفعله المناقض ، وهذه سورة سبقت المشترعين والمنظمات الدولية إلى ما ذكّرنا ، به باربعة عشر قرناً تقريباً ، سبقتهم الى أشرف الغايات وأكملها ، تلك السورة التي عنيتها هي (سورة الحجرات) فليتأمل فيها المتأملون ليروا مصداق ذلك[2] ومع هذا نجد بعض مديري الجامعات في العواصم العربية يرسم ويالأسف في مجلة (العربي) للقومية — التي لم يفهمها الفهم الإيماني الصحيح — يرسم نقاطاً أو مباديء لايتفوه بها إلا ابعد الناس عن القرآن واجهلهم به ، يريد في آخرها للقومية (أن تعشق المثل العليا الدولية) ! كأنه ساكن في غير هذه الكرة الأرضية لا يسمع ولايرى مافعلته الدول في شرقي أوربا والبلقان والجزائر وإفريقية وفلسطين وعمان والشرق الأقصى ، فما أعظم خسارة المسلمين عامة والعرب خاصة بإغفالهم كتابهم وانحرافهم عنه ، بما جعلهم بعد السيادة والسياسة عبيداً وسوقه في انحطاط خلقي سحيق وسبات من التقليد عميق ! وما أعظم خسارة العالم كله بإضاعتهم مملكة الرحمن وهدى القرآن

---

(١) المجلة : قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه (مقدمة في اصول التفسير ص ٧) : العادة تمنع ان يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم والطب والحساب ولا يستشرحوه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ؟

(٢) المجلة : راجع تفسير سورة الحجرات للأستاذ أحمد مظهر العظمة وهي من مطبوعات التمدن الإسلامي ، ولعله اجمع تفسير لها .

الذي شرفهم الله به وأنزله بلغتهم الكريمة مختـــاراً أن تكون هي اللغة الرسمية لجميع بقاع الأرض لو عمل أهلها بواجبهم الحق نحوها ، دعوا أبيهم ابراهيم عليه السلام .

وبعد فلنتساءل جميعاً عن (موقفنا من القرآن) الذي قال فيه منزله جل وعلا « لقد انزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم افلا تعقلون ؟ » ٢١ : ١٠ هل تلوناه حق تلاوته باقامة حدوده وحمله الى جميع البشرية المتعطشة الى دين يحميها من الانحلال ويغذيها باشرف الخصال ؟ هل عرفنا أنفسنا وشكرنا ربنا على هذه المنحة فقمنا بواجبه وحققنا الذكر الحسن ؟ أم على العكس سفهنا انفسنا واستخففنا بربنا فتبذرنا ذلك الكتاب ولم نُعِرْهُ اهتماماً تأسياً باليهود ، فاشتركنا معهم في المثل السيء الذي ضربه الله لهم اذ قال : « مثلُ الذين حُمِلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً) ٦٢ : ٥

أي فارق بعد تفريقنا بينهم وبين من ترك العمل بالقرآن ، وضاع حـــدوده ومزقه تمزيقاً معنوياً بعزله عن التشريع واقصائه عن الحكم ، وحرم نفسه وأهل الأرض جميعاً الاهتداء به ، فلم يبلغ رسالات الله على ضوئه ؟

أيها المسلمون ، إن تبعتنا في حمل كتاب الله تبعة عظيمة ، وانهـــا والله من الخطورة بمكان كبير ، أيها الإخوة اذا كان الذي يتلو الكتاب لمجرّد التلاوة ويعطل احكامه كالحمار مثلاً ، فكيف حال من لا يقرؤه ولا يعيره اهتماماً بل يراه كتابا باليا رجعيا ويعتبره مدعاة للتأخر ، زاعما أنه لا يوافق حال العصر ولا يتمشى معها ، ويعكف على قراءة كتب الشيوعية والاشتراكية الـــتي هي بنتها ، وما تقذف به دور الطبع الحديثة من المصورات الماجنة الخليعة ، ويعمر دور اللهو والسينمات بدلا من المساجد ، أليس حال هذا شراً من ضرب الله لهم المثل السيء ؟ أوليس هو بحالته البهيمية كمن قال الله فيه (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) ٤٧ : ١٢

لقد اثبتت التجارب ان طلب العلوم والفنون مـع اهمال تربية النفس التربية الدينية الصحيحة لا يجدي نفعا ، ولا يحل مشكلا ، بل إن طالبها كذلك قد يغدو عالما ماديا

لا هم له سوى النفعية والوصولية بأي وجه كان ، وعلى أي حساب كان ، وما هـذا التفاخر والتكاثر والانهماك في صنع ما يدمر المدنية إلا من خراب الضمائر بسبب ابتعادها عن وحي رب العالمين. يقول الله تعالى: « فماذا بعد الحق إلا الضلال » ١٠:٣٢ فالتفتوا أيها الإخوة إلى سلفكم الصالح تجدوا أحدهم يحمله بعض سور من القرآن أصلح ما أفسده الفرس والروم وفتح القلوب بمحافظته على الأنفس والأموال والأعراض دون استئثار بشيء أو طمع بلقب أو منصب . . . وانظروا الى أهل زمانكم وما أضاعوا ويضيعون من أموال ، ويمتكون من أعراض ، ويريقون من دماء ، ومع ذلك فإن اذاعاتهم تتبجح بالحرية وخدمة الشعوب إفكا وتضليلا . أما الذين هداهم الله للاسلام الحق ، الذين صلحت ضمائرهم بالقرآن ، فقد ترفعت أنفسهم السامية عن المادة الوضيعة وطهرت اخلاقهم عن تسخير الشعوب والجناية على عقولها واللعب بمقدراتها ، لأن القرآن هداهم الى العدل والرحمة والصدق والاحسان ، فقضوا بالحق وأطلقوا الفكر حرا لاتقيده الأوهام المصنوعة ولا تستره حجب الأباطيل الملفقة التي تقذف بها الصحف والاذاعات في هذا الزمان . (أيها المسلمون) لقد سيطرت الثقافة الاستعمارية على أدمغة فريق منافأبعدتنا بسيطرتهم عن شرعة القرآن الكريم الذي أنزل علينا في لغتنا ولهدانا ولهدى العالم ، فاحدثت فينا عصبية الجنسية التي حرمها الإسلام وشدد في منعها وذلك بعد أن ضعف الدين والعلم الصحيح فينا ، وقد بذل المستعمر جميع وسائله في تثبيت هـذه العصبية بأذهان الناشئة والرعاع ، لأنه يرى فيها نقض عهد الله في أتباع الحنيفية ملة ابراهيم عليه السلام ، وقطعا لما أمر الله به أن يوصل من الميثاق الاسلامي الذي يربط العربي بالعجمي والمشرقي بالمغربي ، كما شرع الحج من أجله . ولولا ابعادنا عن القرآن لما استطاع الأجنبي إلى ذلك سبيلا . فالواجب على كل من يعتز بعروبته الحقة المؤمنة ان يجعل منها أكبر حافز له على أخذ القرآن بقوة وحمله بالتبليغ الصحيح العام الشامل كما أمر الله ، ليكون محققاً لعروبته مصدقاً انتسابه لذلك النبي الكريم ، ومرضياً لربه الذي أنعم عليه بذلك ، وليكون مكرماً لنفسه غير مهين لها ولا مستخف بها ، فإن لم يحمل القرآن حملا صحيحاً ، ورضي لعروبته

بما رسمه لها أهل الزيغ والضلال فقد سفه نفسه ، ودساها بنبذه لرسالات ربه « وقد خاب من دساها » ٩١ : ١٠ وكان باستجابته لداعي الغي كاذباً في جميع ما يدعيه ، وصدق إبليس ظنه فاتبعه فكان عابداً للشيطان منسلخاً من القرآن مستحقاً أسوأ مثل ضربه الرحمن ، ولو بلغ سأوه ما بلغ وحاز ألقاباً وألقاباً فإنه لا يرتفع عما وصفه به الخلاق العليم . وكيف يرتفع من وصفه الله بقصور همته ونقص إيمانه عن حمل رسالة ربه . كيف يرتفع من أبى أن يشرف نفسه بالكتاب الذي شرفه الله به ، فاختار الضعة لنفسه باقتفائه ما رسمه له أعداء الله وأعداؤه ، إن من جعله الله بهذا المثل السيء لا ينفعه ما يُضفي عليه البشر من ألقاب ولا يرتفع برفعة مركزه عن ذلك ، بل يأخذه الغرور برفعة الشأن الخلابة فيتمادى في إعراضه عن القرآن واستهجانه لوحي رب العالمين حتى ينحط إلى مثل أسوأ من ذلك وأسوأ وهو المثل الذي ضربه الله أيضاً لمن انسلخ من آياته واستبدل بها تقديسَ الجنس والوطن ، فجعله الله بهذه الغواية بمثابة الكلب إذ قال : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين » ذلك أن الشيطان ليس له سلطان على عباد الله المخلصين له قصداً وعملاً « إنما سلطانه على الذين يتولّونه » ١٦ : ١٠٠ فأخبرنا الله عمن هذا شأنه أنه لغوايته واستيلاء الشيطان عليه تخلى الله عنه فلم يرفعه بتلك الآيات التي انسلخ عن العمل بها ، قال : « ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه » بانسلاخه عن وحي رب العالمين « أخلد إلى الأرض واتبع هواه » فكانت رغبته ومنتهى عزيمته في الأرض ـ تقديساً للجنس والوطن ـ رغبة في المادة وتعلقاً بالأنانية التي هي مصدر عبادة الهوى والغواية « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ٧ : ١٧٥ والله إن هذا المثل منطبق على أهل هذه الصفات من المعرضين عن القرآن تمام الانطباق إلى آبد الآبدين ، والواقع المحسوس يشهد بذلك ، ففي الماضي يقص التاريخ كثيراً من هذيان الذين أعرضوا عن كتاب الله وتعلقوا بالدنيا فقط ، وفي الوقت الحاضر تكاد تَستَكّ الآذان من شدة مراوغتهم وخصومتهم وصيحاتهم المنكرة ، كل يدعو لمعسكره ويشتم الفريق الآخر ، وإذا سكت فريق لم يسكت الفريق الآخر عمن تركه . فهذا المثل الرائع من معجزات القرآن

الخالدة إذ جميع الصفات الكلبية الخسيسة موجودة فيمن انسلخ عن رب العالمين لأنه محروم من الآداب القرآنية الجليلة فالتصقت به خصائص الصفات الكلبية حتى فيما نجد تنزيه أقلامنا عن ذكره .

وإذ جرت سنة الله الكونية التي لا تتغير على أن أصحاب المخالفات إذا تمادوا في غيهم تكون عاقبتهم التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها ، فإني أربأ بقومي وبني ملتي أن يتمادوا في انحرافهم عن تعاليم القرآن وعن تحكيمه ، خشية أن تحيق بهم هذه العاقبة المشينة كغيرهم ، فيكونوا من أهل هذا المثل السيء الثاني الذي هو أفظع من الأول ، أجارهم الله منه ووفقهم لانتهاج الخير الذي يكونون به مثلاً علياً حقاً . قال تعالى : « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السّوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » ١٠:٣٠

أيها القراء الكرام لنتفكر جيداً في موقفنا من القرآن ، هل هو موقف سلبي فحسب أو موقفنا موقف المنابذ له ؟ لنحذر أن نكون ممن ابتغى غير الله رباً أو افترى عليه الكذب ، فإن الله توعد نبيه مع عظم منزلته ان هو ركن إلى الكفار شيئا قليلاً في طلبهم منه افتراء شيء غير ما أوحي إليه ، فكيف حال من يركن إليهم شيئا كثيراً قال تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ، وإذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً . إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » ١٧ : ٧٣ — ٧٥ أي لو ركنت إليهم ذلك الركون القليل الذي حاك في صدرك لضاعفنا ذلك العذاب في الحياة وبعد الممات . فيا أمة القرآن إن في هذا الوعيد الشديد أكبر دليل على أن أدنى مداهنة للكفار أو انصياع لتقليدهم مضادة لله وخروجاً عن ولايته وسبب موجب لغضبه . وقد صدق علينا هذا الوعيد بزيادة ركوننا اليهم ومداهنتنا لهم ، فما هذه الكوارث والنكبات المتلاحقة التي حلت وتحل بالمسلمين في كل زمان ومكان إلا من غضب الله عليهم بذلك ، وتنفيذه لوعيده بمضاعفة العذاب في الحياة ، فمتى نؤوب إلى الله ونعطي القرآن حقه لينقذنا مما نحن فيه ... ؟

قال صاحب الكشاف (فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر ، وأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله)

(وأقول) هذا واجب المؤمن الذي يتلو القران حق تلاوته كما أمره الله ، ففيه ما يهيج النفوس لنصرة الحق ويثير العزائم ، ولو صحت قلوب المسلمين من أمراضها وأخلصوا دينهم لله لعرفوا قيمتهم وواجبهم أمام القران إذا تلوا هاتين الآيتين فقط : « فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك لعلى صراط مستقيم . وإنه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تسألون .» ٤٣ : ٤٤ أليس من المؤسف المبكي أنهم عالة على غيرهم في كل شيء ، أليس من المحزن المبكي أن أغلب أولاد المسلمين في أمسّ الحاجة إلى تعلم لغات الأجانب متهافتين جادّين ... (١) .

ولو استمسكوا بكتابهم وحملوه كما أمرهم الله لطبقت لغتهم مابين الخافقين ونطق بها جميع أهل الأرض عن حب ورغبة ، فحققوا عزهم وذكرهم الذي اختاره الله لهم وكان لهم السؤدد والقول الفصل بدلاً من حالتهم المعكوسة التي نالوا بها ضعف العذاب في الحياة ؟ أيخفى عليهم التأثير العظيم للغة في العقل والخلق والدين ؟ أم يخفى عليهم أن من لم يرتض القرآن دستوراً فلابد له من ابتداع شيء ، فيكون ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام وأحكامه ، فيكون عرضة لعقوبات الله التي توعد بها أمثالهم إذ قال : (سيجزيهم بما كانوا يفترون » ٦ : ١٣٨ « سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين » ٧ : ١٥٦ لقد أورثنا سوء موقفنا من

---

(١) المجلة : لايعني الكاتب الفاضل خطر تعلم اللغة الأجنبية ، ولكنه يعني ان الصدور عن الحياة الغربية أدّى إلى التهافت على لغاتها ، وليت من وراء ذلك أخذ ماصفا وترك ماكدر ، ولكن كثيراً ماينصرف المتعلم للغة الأجنبية إلى مايغذي بجونه وهواه ، ولو كان العالم مقدراً الحياة العربية بتقدير أهلها لها . . لتهافت على لغتها القرآنية ، ولعلّ ذلك سيكون بتوفيق الدعاة إلى الله على هدى وبصيرة . .

القرآن انحطاطاً في كل شيء وجعل العاطفة تسيطر علينا سيطرة لاتجري إلا على الأغمار ، إذ انصبغت أمتنا بصبغة أجنبية حببت اليها ماحرمه الله بحجة الرقي والاستقلال وتكثير الثروة القومية ، وجعلتنا كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ، نتأرجح بين جحيم المبادىء الهدامة ونقلد أعداءنا في الرذائل ونقصر عن لحوقهم في المخترعات وكسب الأسواق والنفوس ، حتى صرنا في مهوى لايجوز أن يسمى إلا (سقوط النفس) ، وهذا من بعض عقوبات الله لمن أعرض عن وحيه وهداه ، وفي مثل هذا يقول شاعر العروبة :

يا أمة ذاك ماضيها الذي عُرفت ... منه بمجد صريح غير مؤتشب
ما ذا دهاكِ فقد أصبحت هاوية ... مهاويَ الذل من حين الى عطب
ما السحر اسوأ مما لو سحرت به ... بما دهاك فساوى الرأس بالذنب
والسحر ليسَ له فعل ولا عمل ... يحكي انقلابك من رأس الى عقب
قذفت بالمجد في مهوًى لو انحدرت ... فيه النجوم غدت فحماً بلا لهب
مهوًى من الذلِ نائي الغور ممتلىء ... من المصائب بالأرزاء والنُّوَبِ
وبت في نوبٍ للظهر قاصمة ... لم يذكروا مثلها في سائر النوب
فالجسم في شلل والعقل في خلل ... والقلب في نصب والروح في وصب
والله ليس بظلام لِأعبُده ... فلا يغير من حال بلا سبب

فيا أمة محمد ﷺ عموماً ويامن يعتز بعروبته خصوصاً ! غيروا موقفكم من القرآن الى موقف عملي كريم عزيز ... يليق بكرامتكم وبصدق انتسابكم لهذا النبي الكريم ، واعتزازكم بحقيقتكم ولغتكم الحبيبة لغة القرآن الذي يعد من قصر في حمله مفرطاً بجميع مقدساته عابثاً بسعادته ، مستنكراً لحقيقته ، متعرضاً لشكوى نبيه حين سيقول : (يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) ٣٠ : ٢٥ فانتشلوا انفسكم من وصمة العار وغضب الجبار الذي أوقعنا شر موقع أمام الصهيونية

والشيوعية الماحقة التي شعارها التنكيل والنهب والسلب .

ألا تعتبرون أيها المسلمون بالأحداث الجسام ، الا يلهب الحماس في صدوركم ، إن هؤلاء يتفانون في حمل مخازيهم ويتحملون المشاق لنفث قيحهم وصديدهم ، وانتم تتقاعسون عن حمل رسالة النور والهدى ؟

أيها القراء الكرام ان من تتبع ما جرى ويجري في بقاع الأرض من اضاعة الأموال قوامَ البشرية في أعيـــاد ومراسيم شكلية لتقديس الأشخاص والمبادىء المضللة والتسابق في التسلح القاضي على المدنية وازهاق الأرواح واهدار الكرامة وضياع العرض والشرف ؛ عرف ان الناس قد دفعوا ثمناً غالياً لإضاعة القرآن وخسروا خسرانا لا يجبره إلا الرجوع الى هدي رب العالمين وتصحيح الإيمان من جديد .

فعودوا أيها المؤمنون الى حمل رسالتكم ، ليحق الله الحق الذي كتبه على نفسه بقوله جل وعلا (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ٣٠ : ٤٧ (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون .) ٣٠ : ٦

واذكروا أن من استمر في اعراضه ضاعف الله له عذاب الخزي في الحياة الدنيا (ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) ٤١ : ١٦ .

الكويت : عبد الرحمن محمد الدوسري